



قواعد الملك في فكر السلطان أبي حمو موسى الزياني
The Kingship Bases in Abu Hammou Moussa Azeyany's
Thought

د. رضا شعبان

Ridha.chabane@gmail.com

جامعة أكادير – باتنت

تاريخ الإرسال: 2017/08/06 تاريخ القبول: 2021/03/17

الملخص

يهدف هذا البحث إلى التعريف بجانب من إسهامات السلطان أبي حمو موسى الزياني في الفكر السياسي عند المسلمين، وبيان مجهوداته في إثراء هذا العلم الذي قلّ المؤلفون فيه مقارنة بما كُتب في بقية فروع الفقه؛ مبتغيا بذلك توجيه أنظار الباحثين، ورفع همّة الدارسين نحو الاعتناء بالمؤلفات السياسية في الغرب الإسلامي. ويُعد السلطان أبو حمو أحد الذين برعوا في صياغة قواعد للملك، ضمّنوها كتابه: واسطة السلوك في سياسة الملوك، وقد سعى بذلك لتحقيق قوة سلطان دولته، والحفاظ على ملك أجداده؛ فجعلها قواعد أربعة: العقل، والسياسة، والعدل، وجمع المال والجيوش.

الكلمات المفتاحية: قواعد؛ الملك؛ أبو حمو موسى؛ الدولة الزيانية.

Abstract:

This research aims to define an important side of ABU HAMOU EZAYANI contributions in the politic thought, and his efforts to rich this science which is a less in number of his authorships than the other field of FIKH. The researcher goal is:



قواعد الملك في فكر السلطان أبي حمو موسى الزباني ----- د. رضا شعبان

orient scientists view, and elevate the mettle scholars to care of the politic writings in the western Islamic world.

Sultane ABU HAMOU is one of the most known to write bases of monarch in the Islamic politic thought by his book: WASITAT ASSOULOUK FI CIASSETTE EL- MOULOUK, to achieve his nation power, and protect his ancestor's monarch, therefore, he create four bases: mind, politic, justice, and gathering (money and army).

Keywords: Bases; Kingship; Abu Hammou Moussa; Zeyanides' State

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن لكل ملك قواعد يقوم عليها، وهي تشكل مجموع الأسس التي بها قوام السياسة والتدبير، فتتميز الدول قوة وضعفا، تبعا لمتانة هذه القواعد، ومدى صلة الترابط بينها؛ فكلما قويت الصلة قويت الدولة، والعكس بالعكس.

حرص فقهاء الإسلام على بيانها، وتحليل مكنوناتها، وذلك باستقراء أحكام الشريعة، وتتبع تصرفات الراشدين - رضي الله عنهم - في السياسة والحكم؛ فأبدع الماوردي، وأحسن الفراء، وأجاد الجويني، وبرع ابن خلدون، وتفوق ابن الأزرق، ولغيرهم إسهامات جليلة في هذا الباب.

ويعد أبو حمو موسى الزباني أحد الذين أسهموا في صياغة قواعد للملك في الفكر السياسي عند المسلمين، ضمنها مؤلفه: واسطة السلوك في سياسة الملوك، سعيًا منه في الحفاظ على ملك أجداده، وقوة سلطان دولته.



قواعد الملك في فكر السلطان أبي حمو موسى الزياني ----- د. رضا شعبان

فما هي القواعد التي راعاها أبو حمو موسى في قيام الملك ورشاد السياسة؟ وقد جاءت فكرة هذا البحث بقصد بيان هذه القواعد، والتعريف بها، وتحليل حقيقتها، والتنبيه على أهميتها؛ ليكون لبنة في الرقي بفكر أمة، تخلفت عن ركب الحضارة، بسبب الاستبداد والطغيان، وهما بطبيعة الحال نتيجة منطقية، جراء الانحراف عن قواعد الملك، والتفريط فيها.

ولأجل تحقيق الهدف المنشود، قسّمت البحث إلى محورين رئيسيين:

خصّصت الأول للتعريف بالسلطان أبي حمو موسى الزياني.

وبيّنت في الثاني قواعد الملك في فكره - رحمه الله -.

وأهميت البحث بخاتمة ضمّنتها أهم النتائج والتوصيات.

المحور الأول: التعريف بالسلطان أبي حمو موسى الزياني: سيتم في هذا المحور

بيان مولد ونشأة ومقتل السلطان أبي حمو، والتعريف على التعريف بمؤلفه في السياسة "واسطة السلوك في سياسة الملوك"؛ وفقا لما يلي:

أولا/ مولده: ولد أبو حمو موسى بن أبي يعقوب يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن سنة 723 هـ في مدينة غرناطة بالأندلس، وهي السنة رجع فيها أبوه وأعمامه إلى مدينة تلمسان، موطن الأجداد، باستدعاء من أبي تاشفين الأول، فأكرم مثواهم، وأعلى رتبهم بين أمراء بني عبد الواد؛ حيث يتصل نسبه بمؤسس الدولة العبد الوادية يغمراسن بن زيان¹.

ثانيا/ نشأته: ولقد "نشأ أبو حمو في تلمسان، مثل غيره من أبناء الأمراء، فعرف

¹ - عبد الحميد حاجيات: أبو حمو موسى الزياني (حياته وآثاره)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1982، ص69-71.



قواعد الملك في فكر السلطان أبي حمو موسى الزياني ----- د. رضا شعبان

حياة البلاط، وما تشتمل عليه من أهبة وترف، وحفلات، ودرس على أشهر العلماء، فنال من العلم حظا وافرا مكنه من تحصيل مبادئ العربية والعلوم الدينية¹.

بعد أن استولى السلطان أبو الحسن المريني على تلمسان سنة 737 هـ، أرغم والد أبي حمو موسى على الاستقرار بفاس، فعرف الابن آلام الاغتراب صعبة أبيه وكثير من أبناء قبيلته، وقضى قسطا من شبابه هناك، ينهل من المعارف والعلوم، لاسيما أن فاس كانت من أهم مراكز الثقافة الإسلامية آنذاك؛ وفي أوائل سنة 750 هـ رجع أبو حمو إلى وطنه رفقة أبيه وابن عمه أبي زيان بن سعيد، واستقر به المقام مع أبيه في مدينة ندرومة الواقعة شمال غربي تلمسان، بعد أن آلت الإمارة إلى عميه أبي سعيد وأبي ثابت، ثم ما لبث أن لحقت ببني عبد الواد هزيمة نكراء على يد بني مرين، فهرع من لم يقع في أسرهم من بني عبد الواد إلى مختلف النواحي ملتجئين النجاة، فتوجه أبو حمو شرقا نحو الأراضي الحفصية، ... سعى بكل جهده من أجل إحياء الدولة العبد وادية الزيانية تحت رئاسته وحكمه، فكان له ذلك وتمكن من تحقيق حلمه بعد وفاة السلطان المريني أبو عنان سنة 760 هـ².

والدارس لتاريخ تلك الحقبة من الزمن يدرك ببساطة الواقع السياسي الذي كان يعيش فيه أبو حمو موسى، حيث "كان يعيش وسط دائرة سياسية يسودها الصراع العنيف، هذا الصراع اشتركت في إدارته على ساحات المغرب ثلاث قوى سياسية: الدولة الحفصية في الشرق، والدولة المرينية في الغرب، ودولة بني زيان في الوسط، كما كانت تتدخل دولة بني نصر في غرناطة في أحداث المغرب، كما شاركت القبائل العربية

¹ - المرجع نفسه: ص72.

² - المرجع نفسه: ص71-91.



قواعد الملك في فكر السلطان أبي حمو موسى الزياني ----- د. رضا شعبان

بقسط وافر في إضعاف هذه الدولة أو مؤازرتها، وأمام هذا التكتل وجد أبو حمو نفسه مضطرا لخوض الصراع من أجل الحفاظ على ملك أجداده الذي طمحت فيه الدولة المرينية التي تزعم أنها وارثة الدولة الموحدية¹.

ولقد كان لهذا الرجل فضل كبير في استرجاع الدولة الزيانية بتلمسان مجدها واستقرارها حتى نهايتها في سنة 957هـ، واستطاع أيضا أن ينظم أركان الدولة ويرسي قواعد مملكته بفضل ثقافته وحنكته وشجاعته الواسعة، وأن يجعل من تلمسان مدينة الإشعاع العلمي والاقتصادي والحضاري حتى أصبحت أهم وأبرز حاضرة في بلاد المغرب الإسلامي، وله الفضل في ازدهار تلمسان بما شيده فيها من مبان وكثرة العمران، فكانت مقصدا للعلماء والطلبة والتجار².

خلّف لنا السلطان أبو حمو آثارا أدبية تنبئ عن ثقافة عربية لا يستهان بها، والفضل في ذلك يرجع إلى الفترة التي قضاها في بلاط بني عبد الواد بتلمسان، ثم في فاس العاصمة المرينية، وأخيرا في بلاط الحفصيين بتونس، وأهم أثر له كتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك"، أودع فيه آراءه السياسية، وبعض قصائده الشعرية³.

عُرف عنه اعتناؤه بالعلم والعلماء حتى قال عنه الحافظ التنسي في تاريخ ملوك بني زيان: "وأما اعتناؤه بالعلم وأهله فأمر يقصر اللسان عن الإجابة به"⁴.

¹ - محمد الأمين بلغيث: النظرية السياسية عند المرادي وأثرها في المغرب والأندلس، ص 65.

² - عن موقع:

<http://www.almasalik.com/locationPassage.do?locationId=30903&languageId=ar&passageId=5232>

³ - عبد الحميد حاجيات: أبو حمو موسى الزياني (حياته وآثاره)، ص 185-186.

⁴ - الحافظ التنسي: تاريخ ملوك بني زيان، ص 179-180.



قواعد الملك في فكر السلطان أبي حمو موسى الزباني ----- د. رضا شعبان

واشتهر بتواضعه في طلب العلم؛ فكان يجلس على الحصير كبقية الطلاب، وصف التنسي حضور مجلس الإقراء عند الشريف أبي عبد الله التلمساني؛ فقال: "وحضر مجلس إقراءه فيها جالسا على الحصير تواضعا للعلم وإكراما له، فلما انقضى المجلس أشهد بتلك الأوقاف وكسا طلبتها كلهم وأطعم الناس وطول الله مدته حتى ختم السيد أبو عبد الله المذكور تفسير القرآن العزيز فيها، فاحتفل أيضا لحضور ذلك الختم وأطعم فيه الناس وكان موسما عظيما"¹.

ثالثا/ مؤلفه في السياسة: أسهم السلطان أبو حمو موسى الزباني في إثراء التراث السياسي المغاربي بكتابه "واسطة السلوك في سياسة الملوك"، وهو من الكتب القليلة في تاريخ المسلمين التي نجد فيها أن الحاكم هو من يتولى مهمة وضع كتاب يتضمن نصائح للملوك والسلطين، ويقوم بإهدائه إلى ولي عهده، حيث جرت العادة أن العلماء هم من يتولون مهمة تأليف أمثال هذه الكتب، والتي يصطلح عليها البعض اسم كتب "مرايا الأمراء" أو "نصائح الملوك".

تناول أبو حمو موسى في كتابه هذا دراسة القواعد التي ينبغي على الملوك مراعاتها في سياستهم، والخلال التي يحسن لهم التحلي بها إذا أرادوا أن يحققوا ما تصبوا إليه نفوسهم عادة، من نشر السلام والرخاء في بلادهم، والفوز في الدنيا والآخرة، فالكتاب ذو مضمون أخلاقي من جهة، وسياسي من جهة أخرى، إذ يشتمل على القيم الأخلاقية التي ينبغي للملك ورجال حاشيته التحلي بها، والخصال الذميمة التي يجب الابتعاد عنها، كما اشتمل على قضايا الحكم، وسياسة الملك وأعوانه لشؤون الدولة².

¹ - المصدر نفسه: ص 179-180.

² - المرجع نفسه: ص 190.



قواعد الملك في فكر السلطان أبو حمو موسى الزياني ----- د. رضا شعبان

قسّم الكتاب إلى مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة؛ بيّن في المقدمة أنّه ألف هذا الكتاب ليطلع ابنه وولي عهده على قواعد تسيير شؤون الدولة، وليقدم له نصائح حكمية وسياسية عملية، وضمّن الباب الأول نصائح عامة ينبغي للملك مراعاتها إن كان يريد النجاح في الدنيا والفوز في الآخرة، وهي الاتصاف بالعدل، وملازمة التقوى، وحفظ المال، والعناية بالجيش، واحتوى الباب الثاني على قواعد الملك وأركانه من عقل وسياسة وعدل والاعتناء بجمع المال والجيش، وهو أهم أبواب الكتاب، وجاء الباب الثالث محلا للأوصاف المحمودة التي يستقيم بها الملك من شجاعة وكرم وحلم وعفو، وجعل الباب الرابع في الفراسة، حيث اشتمل على دراسة نفسية لهيئة الناس، والوسائل التي يمكن بها اختبارهم والوصول إلى ما يكنه باطنهم، وفي خاتمة الكتاب يتوجه السلطان أبو حمو إلى ابنه ببعض النصائح، ويحثه على التحلي بمكارم الأخلاق، وإتباع الحق، واجتناب الباطل، والعمل للآخرة، ويرغبه في مساعدة المسلمين في جهادهم ضد النصارى بالأندلس، والاحتفال بليلة المولد النبوي الشريف، وينهي كتابه ببعض القصائد التي نظمها بمناسبة حفلات المولد¹.

وحتى نكون من المنصفين يمكن القول: إن كتاب أبي حمو موسى جاء حافلا بالآراء والأفكار السياسية القيّمة، وحاويا لأخبار تاريخية حمّية، ومعالجا لكثير من القضايا الاجتماعية؛ كتبه مؤلفه بأسلوب أدبي راق، فهو في الحقيقة كتاب في السياسة والتاريخ والاجتماع والأدب.

رابعا: مقتله: قتل السلطان أبو حمو موسى الزياني سنة 791 هـ في جبال تلمسان بين الصخور والأعشاب، بعد صدام وتناحر بينه وبين بعض رعاياه المنحازين إلى

¹ - أبو حمو موسى الزياني: واسطة السلوك في تدبير الملوك، المطبعة التونسية، تونس، 1279هـ.



قواعد الملك في فكر السلطان أبي حمو موسى الزياتي ----- د. رضا شعبان

ابنه وولي عهده أبي تاشفين، فكانت خاتمة مأساة، تسبب فيها الطموح الأعمى لفلذة كبده في الوصول إلى الحكم¹؛ فخابت الآمال التي كان يرجوها، بعقوق الولد، ورغبته الجاحمة في الاستيلاء على ملك أبيه.

المحور الثاني: قواعد الملك عند أبي حمو موسى:

لقد حوى كتاب واسطة السلوك بين طبيّاته القواعد التي بها قوام الملك الرشيد، وأساس الإصلاح الذي ينشده الملك بسياسته؛ فذكر أبو حمو أنها أربع قواعد رئيسة هي: العقل والسياسة والعدل وكذا الاعتناء بجمع المال والجيش.

أولا - قاعدة الملك الأولى: العقل.

ابتدأ أبو حمو حديثه عن قاعدة العقل بكلام يمدح فيه العقل، وذوي النباهة والفتنة من أصحاب العقول الرشيدة، فكانت العقول عنده أربعة أقسام؛ عقل يصلح دنيا الملك وآخرته، وعقل يصلح آخرته دون دنياه، وعقل يصلح دنياه دون آخرته، وآخر لا يصلحهما معا².

ولعلّ فعله هذا يتواءم مع تقسيم ابن خلدون للملك، الذي جعله ثلاثة أصناف؛ طبيعي، وسياسي، وخلافة، وعرف كل واحد منها فقال - رحمه الله -: "الملك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة، والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار. والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا

¹ - عبد الحميد حاجيات: مرجع سابق، ص 154-155.

² - أبو حمو موسى الزياتي: واسطة السلوك في سياسة الملوك، تحقيق محمود بوترعة، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، 2012، ص 79-82.



قواعد الملك في فكر السلطان أبي حمو موسى الرّياني ----- د. رضا شعبان

ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة؛ فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به¹.

القسم الأول: الملك الذي له عقل يُصلح دنياه وآخرته: يختص هذا العقل بكونه أتم العقول وأصلحها للسياسة، وهو ميزان التفرقة بين خواص الناس والعوام منهم. قال أبو حمو - رحمه الله -: "يا بني وهذا هو العقل التام الذي تميز به الخاص من العام، والسياسة الكاملة التي تعلو بالمنفعة الشاملة"².

ويمتاز صاحب هذا الصنف من العقول بصفاء سريره بينه وبين الله - عز وجل -، وصلاح سياسته للرعية بما يكفل لها سعادة الدنيا والآخرة، وذلك مقصود الخلافة عند المسلمين كما نصّ عليه ابن خلدون آنفاً.

قال أبو حمو - رحمه الله -: "يا بني وعلامة المتصف به أن يكون فيما بينه وبين الله - عز وجل - حسن السريرة، وأن يسير في الرعية بأحسن سيرة، وأن يكون حاكماً على هواه، يؤثر عقله على ما سواه، وأن يحب لرعيته ما يحب لنفسه، وما يستجلب به للرعايا من لطف أنسه"³.

ووجه ابنه إلى جعل الناس ثلاثة: "كبيرهم أبا، وأوسطهم أخا، وصغيرهم ولدا"⁴، ونصحه ببر الأب وإكرام الأخ والرحمة بالولد. وهذا من مقتضيات رجحان العقل وصلاح السياسة.

¹ - ابن خلدون: المقدمة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1423هـ، 2003م، ص189.

² - أبو حمو موسى: واسطة السلوك في تدبير الملوك، تحقيق محمود بوترة، ص82.

³ - المصدر نفسه، ص82.

⁴ - المصدر نفسه، ص82.



قواعد الملك في فكر السلطان أبي حمو موسى الزياتي ----- د. رضا شعبان

القسم الثاني: الملك الذي له عقل يصلح آخرته دون دنياه: يختص هذا العقل بكونه يهتم بإصلاح الآخرة، والتفريط في شؤون الدنيا، والظاهر أن هذا الصنف من العقول لا يصلح لسياسة الدنيا؛ ذلك أن الملك في الشريعة غايته حراسة الدين وسياسة الدنيا، وهو المعنى السابق عند ابن خلدون في تعريف الخلافة¹، وكذلك الماوردي في قوله: "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا"².

وعادة ما يختص بهذا العقل الزهاد الذين آثروا الحياة الآخرة عن الدنيا؛ فيحسن بأمثال هؤلاء اجتنباب السياسة، لأنهم سيفوتون على الأمة مصالحها الدنيوية، ويدخلونها في الحرج والضّرر المرفوعان شرعا.

وقد ذكر أبو حمو أمارات ومعايب هذا العقل، فقال - رحمه الله -: "يا بني وعلامته أن يتشاغل بالعبادة ويجعل ما يتعلق بأمر خلافته كالزيادة، ولا يترفه في ملبس ولا مطعم، ولا بأمر رعيته ولايتهم، ويشغل بأهل الصلاح ويفرط في الجيش والمال الذي بمما صلاح دنياه وأخراه، فصارت الولاية تأخذ ماله ولا شعور لهم به، وضاع جيشه بسببه لعدم نظره فيهم، فإن دهمه عدو فلعدم نظره في ماله وجنده لا يجد ما يصادر به عدوه عن رعيته، وذلك مما يؤول إلى خراب ملكه وتعجيل هلكه لعدم اكتراثه بأمر رعيته"³.

القسم الثالث: الملك الذي له عقل دنياه دون آخرته: يتصف صاحب هذا

¹ - ابن خلدون: المقدمة، ص189

² - الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ت عصام فارس الحرساني ومحمد إبراهيم الزغلي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1461هـ، 1996م، ص13.

³ - أبو حمو موسى: واسطة السلوك في تدبير الملوك، تحقيق محمود بوترعة، ص85.



قواعد الملك في فكر السلطان أبي حمو موسى الزباني ----- د. رضا شعبان

العقل بالبراعة في إدارة شؤون الدنيا وسياستها، والتفريط في تحصيل الآخرة وثوابها؛ وأقرب عقول الناس منه في هذا العصر: العقل الغربي، خاصة الأوروبي والأمريكي، فقد برز للعيان حسن تدبيرهم وكياسة تصرفهم في الحفاظ على تحقيق جلب النفع ودفع الضرر العاجلين، ولا أثر في الاهتمام بالآجل منهما.

وأقرب ما يكون هذا الصنف من العقول إلى الملك السياسي عند ابن خلدون¹، حيث يكون للعقل فيه مطلق النظر في إصلاح دنيا الناس دون الالتفات إلى آخرتهم، والواقع يشهد بكفاءة هذا العقل وأهليته للسياسة الوضعية، ولنا حق التأمل في مخرجات الحضارة الغربية في هذا العصر.

ذكر أبو حمو صاحب هذا العقل من الملوك، فقال - رحمه الله - : "... فهذا له سياسة وليس له عقل تام، ويرجى ثبوت ملكه وانتظام سلوكه، لحسن سياسته التي يقوم بها أمور رعيته، وإن كان يظهر خلاف ما في طويته فأمره راجع إلى مولاه فيما أسره وأخفاه، فهو يجري الناس على عوائدهم المألوفة وأحوالهم المعروفة، وإن حدث على رعيته زيادة لم يشعروا بها حتى كأنها عادة، وذلك من لطف سياسته وحسن تدبيره ورياسته..."².

وقد وردت في القرآن قصة ملكة سبأ، وذكر رشادة حكمها، وهي واحدة من أصحاب هذه العقول، بما لها من عقل يروم إصلاح الدنيا؛ فحرصت على مشاورة عليّة القوم عندها في إدارة ملكها، حتى تستقيم شؤونها، وينعم بالخير شعبها. قال الله - سبحانه وتعالى - : [قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ

¹ - ابن خلدون: المقدمة، ص 189.

² - أبو حمو موسى: واسطة السلوك في سياسة الملوك، ت محمود بوترعة، ص 86.



قواعد الملك في فكر السلطان أبي حمو موسى الزباني ----- د. رضا شعبان

قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونَ]]¹.

القسم الرابع: الملك الذي له عقل لا يصلح آخرته ولا دنياه: يعد هذا القسم أردأ العقول وأفسدها؛ فلا دنيا أصلح ولا آخره اجتهد في تحصيلها، وقد ابتليت أمة الإسلام في هذا العصر ببعض بنيتها، ممن فوتوا على الأمة مصالح دنياها، وأضروا بآخرتهم، فكان الاستبداد والطغيان والجور والتخلف سمة بارزة في مجتمعاتهم ودولهم، حتى أصبح بعض بني الإسلام يرجو العيش في دولة يقودها ذوو العقل السياسي، ويسعى للفكاك من برائن الجهل والفساد.

وصف أبو حمو صاحب هذا العقل فقال - رحمه الله -: "... له عقل ناقص ولا سياسة له، وعلامته أن يجور على رعيته، ويسيء إليهم، ويحدث الحوادث عليهم، ويحسن لمن أساء، ويسيء لمن أحسن، وينطق بخلاف ما أظهر، ويظهر خلاف ما نطق، هذا مع انهماكه في لذاته، واستغراقه في شهواته، واشتغاله في جميع أوقاته، وتقليد الأمور غير مستحقيها، وتوليها غير أهلها، وهذه أفعال الشياطين لا أفعال السلاطين، وشيم الفتاك لا سيرة الملاك، وهذا غلب على عقله هواه، فأظهر من تصرفه من الفساد ما نكر من فعله، وجنانيته على نفسه وعلى رعيته..."².

وبعد فرعون أحد الملوك الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، وقد كانت تصرفاته توحى بأنه ليس له عقل دنيا ولا آخره؛ استبد بقومه وادعى الربوبية، طغى وتجبر حتى أورده هذا العقل الفاجر المهالك، فهلك وأتباعه في اليم شر هلاك. قال الله - سبحانه وتعالى - مخبرا عن حال فرعون مع قومه: [[قَالَ فِرْعَوْنُ مَا

¹ - سورة النمل: الآية 32.

² - أبو حمو موسى: واسطة السلوك في سياسة الملوك، تحقيق محمود بوترة، ص 89.



قواعد الملك في فكر السلطان أبي حمو موسى الزياتي ----- د. رضا شعبان

أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ¹.

وذمّ - سبحانه وتعالى - إذعان القوم له وطاعتهم إياه: [[فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ
فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ]]².

وقرين هذا الصنف من الحكم ومثيله، الملك الطبيعي الذي وصفه ابن خلدون بأنه
يتعلق بحمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة³؛ حيث لا أثر للعقل ولا للدين في
توجيه السياسة وترشيد أحكامها.

ثانيا - قاعدة الملك الثانية: السياسة.

يعطي أبو حمو موسى هذه القاعدة أهمية بالغة؛ فعليها مدار الملك، وبها صلاح
الحكم ورشاد التصرف، حتى أنه جعل التدبير أصلها، والفكر الصائب السليم قوامها.
قال - رحمه الله -: "... أصل السياسة التدبير، ولا يكون التدبير إلا بفكر
صائب سليم"⁴.

ويعضد هذا المعنى قول أبي حامد الغزالي في تعريف السياسة بأنها: "استصلاح
الخلق بإرشادهم إلى الطريق المستقيم المنجي في الدنيا والآخرة"⁵.
وقول ابن عقيل بأنها: "ما كان فعلا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح، وأبعد

¹ - سورة غافر: الآية 29.

² - سورة الزخرف: الآية 54.

³ - ابن خلدون: المقدمة، ص 189.

⁴ - أبو حمو موسى: واسطة السلوك في سياسة الملوك، تحقيق محمود بوترعة، ص 92.

⁵ - الغزالي، أبو حامد: فاتحة العلوم، المطبعة الحسينية، مصر، ط 1، 1322هـ، ص 6.



قواعد الملك في فكر السلطان أبي حمو موسى الزباني ----- د. رضا شعبان

عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول - صلى الله عليه وسلم -، ولا نزل به وحي¹.
والسياسة بهذا المفهوم، عند فقهاء الإسلام، لا تصدر إلا عن أصحاب القسم الأول من العقول، الذين لهم عقل يصلح الدنيا والآخرة؛ ولكم حق التأمل في سياسة الرعيل الأول من الخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم -، وحرصهم الشديد على النجاة بالأمة في العاجل والآجل.

وقد جعل أبو حمو موسى علاقة الملك بالنسبة للسياسة على أربعة أقسام؛ الأول: أن تكون سياسة الملك عن تدبير سديد ورأي مصيب رشيد، والثاني: أن تتزل الناس منازلهم، والثالث: أن يجري مع الناس على وفق زمامهم وأوقاتهم وأغراضهم وطبائعهم وطبقاتهم، والرابع: أن يكون الملك يقظانا ماهرا حازما دهقاننا ضابطا لأمره².

القسم الأول: أن تكون سياسة الملك عن تدبير سديد ورأي مصيب رشيد:
أرشد أبو حمو ابنه وولي عهده في هذا القسم إلى التزام رأي الوزراء، والجلساء، والكتّاب، والفقهاء، والقضاة، والأعوان، والعمال، والقواد، والأجناد، وفصل الكلام في ذكر خصائص وصفات كل واحد منهم³؛ حتى لا تنحرف السياسة عن أهدافها النبيلة وغاياتها السامية.

القسم الثاني: أن تتزل الناس منازلهم: وجّه أبو حمو موسى ابنه وولي عهده إلى ضرورة التزام هذه القاعدة في سياسته، وتقسيم الناس إلى أربع طبقات؛ الأولى: الوزراء

¹ - ابن قيم الجوزية: الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية، تحقيق نايف بن أحمد الحمد، مطبعة المؤتمر الإسلامي، جدة، السعودية، ج1، ص29.

² - أبو حمو موسى: واسطة السلوك في سياسة الملوك، ت محمود بوترة، ص92-195.

³ - المصدر نفسه، ص92-146.



قواعد الملك في فكر السلطان أبي هو موسى الزياني ----- د. رضا شعبان

والكتاب. الثانية: صاحب الأشغال (الموكل بحفظ جباية الأموال). الثالثة: صاحب الشرطة. الرابعة: أشياخ القبائل وقادة الجيش¹؛ حتى تتحقق له السعادة ودوام السلطان بإذن الله تعالى.

القسم الثالث: أن يجري مع الناس على وفق زمانهم وأوقاتهم وأغراضهم وطبائعهم وطبقاتهم: وهذه صفة من له حنكة في السياسة، وخبرة في قيادة الناس، وقدرة على التعامل مع الجميع باختلاف طبائعهم وتنوع حاجاتهم.

قال - رحمه الله - : "اعلم يا بني أنه ينبغي لك أن تجري مع الناس على وفق زمانهم وأوقاتهم وأغراضهم وطبائعهم وطبقاتهم، وأن تسأيس من كان مفرط الجهالة من الخدام، وترايضه مرايضة الجموح باللجام، حتى تنتفع بخيره وتأمين من شره، فتستدرجه بلطف سياستك، وترده إلى وفق غرضك، وذلك من رياستك، حتى يسير بعد جفوته طوع قيادتك، ولا تتلقاه بالعنف من أول وهلة، فالخير كله في التأني والمهلة، ولا خير في السرعة والعجلة، ولا تعنفه على الحاجة إذا كانت لك به حاجة"².

القسم الرابع: أن يكون الملك يقظانا ماهرا حازما دهقانا ضابطا لأمره: أرشد ابنه وولي عهده إلى اليقظة لما فيها من حزم وعزم؛ فهي "رأس الحزم وعمدة العزم"³، والدهقان من الساسة والملوك من يجمع بينهما والبراعة في الرأي وحسن التصرف.

فجعل - رحمه الله - اليقظة باين؛ الأول: في الأمور التي لا محيد عنها للملك كاتخاذ المعقل، والجواد، وتوفير الذخائر، واتخاذ وزير على المواصفات المطلوبة. والثاني:

¹ - المصدر نفسه، ص 146 — 151.

² - المصدر نفسه، ص 151.

³ - المصدر نفسه، ص 153.



قواعد الملك في فكر السلطان أبي حمو موسى الزباني ----- د. رضا شعبان

في أقسام أعداء الملك، بأن يكون العدو أقوى، أو أن يكون العدو أضعف، أو أن يكون العدو مساو في الجيش والبلاد والحزم والجلاد والكفاية والسياسة والنجابة والرياسة¹. والظاهر أن في كل ذلك حرص شديد من السلطان أبي حمو على استمرار مملكته ودوام عزها؛ فقد كان - رحمه الله - يلفت الأنظار، ويرشد الألباب، ويصوّب الآراء في اتجاه السياسة الرشيدة التي هي قوام الملك الراشد.

ثالثا - قاعدة الملك الثالثة: العدل.

أكد السلطان أبو حمو على أهمية العدل، فأوصى به لقوام الملك ودوامه، فقال - رحمه الله -: "اعلم يا بني أن العدل سراج الدولة فلا تطفئ سراج العدل بريح الظلم؛ فإن ريح الظلم إذا عصفت قصفت، وريح العدل إذا هبت ربت، ومن شروط الإمارة العدل في الأحكام والرفق بالأنام"².

وقال: "يا بني أربعة لا يزول معها الملك: حسن التدبير في الأمور، والعدل في الخاصة والجمهور، والأخذ بالحزم، والصبر في الأزم. يا بني وأربعة لا يثبت معها ملك: سوء التدبير، ومخالفة النصيح والمشير، وخبث السريرة والنية، والجور على الرعية"³. وقال: "يا بني من تدرع بدرع العدل وقي شر العدا، ومن تلبس بلبس الجور سقي كأس الردى، والعدل خير من ماء الحياة، والجور أشر شيء يتقى، والعدل نعم ما يجتنى، والجور بئس ما يقتنى، والعدل كثر الأمير وحياة الغني والفقير"⁴.

¹ - المصدر نفسه، ص 153-195.

² - أبو حمو موسى: واسطة السلوك في سياسة الملوك، المطبعة التونسية، تونس، 1279هـ، ص 18.

³ - المصدر نفسه: ص 18-19.

⁴ - المصدر نفسه: ص 19.



قواعد الملك في فكر السلطان أبي هو موسى الزياني ----- د. رضا شعبان

وقد ألزم الله - سبحانه وتعالى - ولاية الأمور بوجوب التزام العدل في الأمة، وأداء الأمانات إلى أهلها، فقال - سبحانه وتعالى -: **[[إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا]]**¹.

وجاءت الآيات في القرآن الكريم متظافرة؛ تأمر بالعدل وتنهي عن الظلم، ترفع من شأن العادلين وتخط من قدر الظالمين، سواء كان الفعل صادرا عن الفرد أو الجماعة، ناتجا عن الحاكم أو المحكوم.

فحرص الرسول - صلى الله عليه وسلم - على توجيه الأمة وولاية أمورها إلى الاهتمام بإقامة العدل في الأرض، ونبه إلى فضائله وسمو منزلة العادلين عند الله - سبحانه وتعالى -؛ فجاءت سنته - صلى الله عليه وسلم - بما ثبت أنه كان السباق إلى تجسيد هذا المبدأ العظيم بأفعاله وأقواله - صلى الله عليه وسلم -.

قال - صلى الله عليه وسلم -: **((إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا، إِمَامٌ عَادِلٌ، وَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ، وَأَبْعَدُهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا، إِمَامٌ جَائِرٌ))**².

وقال - صلى الله عليه وسلم - : **((سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله الإمام العادل...))**³.

¹ - سورة النساء: الآية 58 .

² - الترمذي: سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر و آخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، كتاب الأحكام عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الإمام العادل، رقم 1329، ج3، ص617.

³ - مسلم: صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1991م، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم 1031، ج2، ص715 .



قواعد الملك في فكر السلطان أبي هو موسى الزباني ----- د. رضا شعبان

وقال - صلى الله عليه وسلم - : ((ما من أمير عشرة إلا وهو يؤتى به يوم القيامة مغلولاً حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور))¹.

وروي أنه : "طعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجلاً في بطنه إما بقضيب وإما بسواك، فقال: أوجعتني، فأعطيني العود الذي كان معه، فقال: ((استقد))، فقبل بطنه، ثم قال: بل أعفو لعلك أن تشفع لي بها يوم القيامة"².

إن في حب الله - سبحانه وتعالى - للإمام العادل، ودنو مجلسه منه، وجعله أول السبعة الذين يظلمهم في ظله يوم القيامة، دليل على علو قيمة العدل، وسمو مكانته عنده، وكذلك في بغضه - عز وجل - للإمام الجائر، وتبعد مجلسه عنه؛ فالعدل هو الذي يعلي درجة الأئمة العادلين، ويرفع شأنهم عند الله، والظلم هو الذي يرددهم مقت الله وعقابه العادل.

وأكد الفقهاء على ضرورة التزام العدل، والابتعاد عن الظلم، لترشد السياسة، ويشتد الملك، وتقوى الدولة.

قال ابن تيمية - رحمه الله -: "...وأمر الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال:

¹ - البيهقي: السنن الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، 1414هـ، كتاب آداب القاضي، باب كراهية الإمارة وكراهية تولي أعمالها لمن رأى من نفسه ضعفاً...، رقم 20002، ج10، ص96.

² - الهيثمي: مجمع الزوائد، دار الريان للتراث، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407هـ، كتاب الدييات، باب ما جاء في القود والقصاص ومن لا قود عليه، ج6، ص289.



قواعد الملك في فكر السلطان أبي حمو موسى الزياتي ----- د. رضا شعبان

الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام...، وذلك أن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة"¹.

وقال ابن القيم - رحمه الله -: "... فإن الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه، ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به الأرض والسموات، فإذا ظهرت أمارات العدل، وأسفر وجهه بأي طريق كان، فثم شرع الله ودينه..."².

وقال ابن خلدون - رحمه الله -: "الظلم مؤذن بخراب العمران"³.

وذكر أبو حمو موسى أن العدل هو أسّ الدولة، وإقامة الملة، ورأس السياسة، ومدار الرئاسة، وأن الملك بالنسبة إليه أربعة أقسام: الأول: أن يكون الملك عادلا في نفسه ورعيته وأهله وخاصته. الثاني: أن يكون الملك عادلا في نفسه وخاصته وأقاربه. الثالث: أن يكون الملك جاريا مع الرعية على العوائد المألوفة والأحوال المعروفة. الرابع: أن يكون الملك جاريا على غير الأمور الشرعية العادلة⁴.

القسم الأول: أن يكون الملك عادلا في نفسه ورعيته وأهله وخاصته: وهذا هو الأصل في الحاكم المسلم، يُجري العدل على جميع مواطني دولته، دون تمييز بينهم بسبب

¹ - ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، 1425هـ، 2004م، ج28، ص146.

² - ابن القيم: الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق نايف بن أحمد الحمد، مطبعة المؤتمر الإسلامي، جدة، السعودية، ج1، ص31.

³ - ابن خلدون: المقدمة، ص272.

⁴ - أبو حمو موسى: واسطة السلوك في سياسة الملوك، ت محمود بوترة، ص196-199.



قواعد الملك في فكر السلطان أبي حمو موسى الزياتي ----- د. رضا شعبان

الدين أو الجنس أو اللغة أو المذلة.

قال - رحمه الله - : "اعلم يا بني أنه ينبغي لك أن تكون عادلا في نفسك، عادلا في رعيته، جاريا معهم على الطريقة السوية، موافقا للأحكام الشرعية، مستقيما في أحوالك، مرضيا في أقوالك وأفعالك"¹.

القسم الثاني: أن يكون الملك عادلا في نفسه وخاصته وأقاربه: وهذا من سوء السياسة وضعف التدبير، وشأنه إيقاع الظلم على الرعية من قبل الخاصة والأقارب، فيظهر الاستبداد والطغيان المؤديان خراب الدول والأوطان.

قال - رحمه الله - : "يرى أن ملكا من الملوك كان عادلا في نفسه وخاصته، يتشغل بالعبادة، ويأخذ في الانقطاع والزهادة، حمل الناس على العدل، فظن أنهم مجبولون على الفضل، فلا يصل إليه إلا علم بلده دون البلاد البعيدة التي تحت يدهن فضاعت الرعية لعبادته، وتضرر كل من تحت إيماله، حتى خربت بلاده واحتقره عماله وقواده؛ فكان سبب خراب ملكه وذهابه"².

القسم الثالث: أن يكون الملك جاريا مع الرعية على العوائد المألوفة والأحوال المعروفة: وهذا الصنف من الملوك متوسط العدل؛ لأنه يجري رعيته ومواطني دولته على ألفوه من عادات وأحوال، فلا يحدث لهم أمرا يعود عليهم بالنفع أو الضرر، شأنه الإقبال على أمور الدنيا والتفريد في بعض أمور الآخرة.

قال - رحمه الله - : "هذا يا بني عدله متوسط وهذا كثير في ملوك زماننا"³.

¹ - المصدر نفسه، ص197.

² - المصدر نفسه، ص198.

³ - المصدر نفسه، ص198.



قواعد الملك في فكر السلطان أبي حمو موسى الزياتي ----- د. رضا شعبان

القسم الرابع: أن يكون الملك جاريا على غير الأمور الشرعية العادلة: وهذا القسم نقيض الأول؛ ستمتة الجور في التصرف، وسوء الأقوال والأفعال، وسبب ذلك كله: عقل الملك الذي لا يصلح لإصلاح الدنيا ولا الآخرة، وسياسته التي تفتقد إلى الرشد والحزم واليقظة.

قال - رحمه الله -: "هذا وإن كان ضد الأول، وهو أن يكون جاريا على غير الأمور الشرعية، العادلة، وهذه خلافة فرعون، يجور على رعيته، ويعاملهم بخبث نيته، فيأخذ بالجناية غير الجاني، وينجز في المظالم من غير توار، ويغلب شهوته على عقله، وجوره على عدله، وينهمك في لذاته، ويبالغ فب شهواته؛ فهذا يا بني: ملك لا يعدل في نفسه، ولا في رعيته، ولا أحسن في ظاهره، ولا في باطنه، ومثل هذا يكون ملكه سريع الخراب، وهلكه شديد الاقتراب"¹.

رابعا - قاعدة الملك الرابعة: جمع المال والجيش.

جمع أبو حمو موسى بين المال والجيش في قاعدة واحدة لارتباطهما الوثيق ببعضهما البعض؛ فلا يستقيم الجيش إلا بمال، ولا يصاب المال ويحفظ إلا بجيش. قال - رحمه الله -: "وإنما جعلنا الجيش والمال معا قسما واحدا، لأن كل واحد منهما متوقف على صاحبه، ومطلوب بمطلبه، فلا مال إلا بجيش ولا جيش إلا بمال، واصلهما العدل، لأن العدل يجمع المال، والمال يكفل الجيش، والجيش يحوط الرعية"². ونقل ابن رضوان المالقي عن الطرطوشي ما يؤكد هذا المعنى، فقال - رحمه الله -: "... عدو الملك بيت المال وصديقه جنده، فإذا ضعف أحدهما قوي الآخر، وإذا ضعف

¹ - المصدر نفسه، ص 199.

² - المصدر نفسه، ص 200.



قواعد الملك في فكر السلطان أبي حمو موسى الزياتي ----- د. رضا شعبان

بيت المال ببدله للحماة، قوي الناصر واشتد بأس الجند، فقوي الملك، وإذا قوي بيت المال وامتألاً بالأموال قلّ الناصر وضعفت الحماة، فضعف الملك ووثب عليه الأعداء¹. وقد جاءت الشريعة مؤكدة على أهمية المال في حياة المسلمين، وضرورته لازدهار عمرانهم وقوة دولتهم؛ فأحل الله البيع باعتباره أحد أهم سبل اكتساب المال، ومنع كل التصرفات التي من شأنها الإضرار بأطراف العقد فيه.

قال - سبحانه وتعالى -: **[[الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا...]]**².

وجاءت نسبة المال إلى البشر، واختصوا به، ليزداد تعلقهم وحرصهم عليه؛ فيحفظونه ولا يصرفونه في غير الوجوه المشروعة له.

قال - سبحانه وتعالى -: **[[وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ]]**³.

وبّنه الله - سبحانه وتعالى - في كثير من الآيات القرآنية إلى خطورة بعض الصفات الذميمة؛ كالإسراف والتبذير والتقتير، سواء على مستوى الفرد أو الجماعة،

¹ - ابن رضوان المالقي: الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق سامي النشار، الشركة الجديدة دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1404هـ، 1984م، ص365-366.

- الطرطوشي، أبو بكر محمد بن الوليد: سراج الملوك، تحقيق محمد فتحي أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ط1، 1414هـ، 1994م، ج2، ص501-502.

2 - سورة البقرة: الآية 257.

3 - سورة البقرة: الآية 188.



قواعد الملك في فكر السلطان أبي حمو موسى الزباني ----- د. رضا شعبان

ومنع المسلمين من الاتصاف بها، وحذرهم - سبحانه وتعالى - خطورة ذلك على الكيان الاجتماعي للأمة.

قال - سبحانه وتعالى -: **[[يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ]]**¹.

وقد كان العلو والإسراف من صفات الفرعونية الطاغية؛ قال - سبحانه وتعالى - مخبرا عن حال فرعون مع قومه: **[[فَمَا أَمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنْ فِرْعَوْنُ لَعَالٌ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ]]**². وقال مخبرا عنه أيضا: **[[...إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ]]**³.

لذلك كان علو المترفين وفسقهم داخل المجتمع أحد أهم أمارات هلاك الأمم، وسبب ظهور الفساد المؤدي إلى الخراب.

قال - سبحانه وتعالى -: **[[وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا]]**⁴.

وحرص الرسول - صلى الله عليه وسلم - على أن يكون استغلال المسلمين للمال استغلالا حسنا، يتوافق مع النظرة الشرعية التي لأجلها شرع اكتسابه، والرامية أساسا إلى تيسير سبل التعامل بين البشر دون استغلال أحدهم للآخر.

1 - سورة الأعراف: الآية 31.

2 - سورة يونس: الآية 83.

3 - سورة الدخان: الآية 31.

4 - سورة الإسراء: الآية 16.



قواعد الملك في فكر السلطان أبي حمو موسى الزياتي ----- د. رضا شعبان

قال - صلى الله عليه وسلم - : ((نعمًا بالمال الصالح للرجل الصالح))¹.
وقال - صلى الله عليه وسلم - : ((إن الله حرّم عليكم عقوق الأمهات، ومنعا وهات، ووأد البنات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال))².
أدرك أبو حمو موسى أهمية المال وضرورته لتحصين الملك، وإعداد الجيش لحماية المملكة، والدّفاع عن حرّات المسلمين؛ فكانت الملوك عنده في هذا الباب أربعة أقسام: الأول: أن يشتغل الملك بجمع المال والجيش بقدر ما يحكم من البلاد. والثاني: أن يشتغل الملك بجمع المال ويفرط في الجيش. الثالث: أن يشتغل الملك بجمع الجيش ويفرط في المال. الرابع: أن يفترط الملك في جمع المال والجيش³.
القسم الأول: أن يشتغل الملك بجمع المال والجيش بقدر ما يحكم من البلاد: وهذا من تمام العقل وكمال السياسة؛ فالحاكم الحاذق هو الذي يوازن بين الإيرادات والنفقات، ويوازي بين الإمكانات والمتطلبات.
قال - رحمه الله - : "اعلم يا بني أنه ينبغي لك أن تتخذ جيشا بقدر ما تحكم به بلادك، ولا يحملك الحرص على أن تكثر أعدادك؛ فليكن جيشك قدر ما يكفيك من المال، ولا تكن مفرطا لئلا يتعذر عليك الحال"⁴.

¹ - أحمد بن محمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد ابن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ، 1997م، مسند الشاميين، حديث عمرو بن العاص عن النبي ﷺ، رقم 17763، ج29، ص298-299.

² - البخاري: البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، ط1، 2002م، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر، رقم5975، ص1501.

³ - أبو حمو موسى: واسطة السلوك في سياسة الملوك، تحقيق محمود بوترة، ص200-207.

⁴ - المصدر نفسه، ص200.



قواعد الملك في فكر السلطان أبي حمو موسى الزباني ----- د. رضا شعبان

القسم الثاني: أن يشتغل الملك بجمع المال ويفرط في الجيش: وهذا تصرف غير محمود، وتدبير مذموم، ونذير شؤم على الدولة ومواطنيها؛ فالاشتغال بجمع المال، والتفريط في القيام بالجيش وسياسة شؤونه، يؤدي ضعف هذا الأخير، وهو أحد أعمدة الحكم، وركنه الشديد، الذي به يصد العدوان، ويأمن الناس في معاشهم، وبه تبلغ الدعوة الآفاق.

قال - رحمه الله -: "سمعنا عن بعض ملوك مصر اسمه بلدفور كان يجمع الأموال ولا يحفل بالرجال، فقال له أصحابه: إن أمير الجيوش بالشام يتوعدك، وكأنه قد قدم عليك، فاستد الرجال وأنفق الأموال. فأوماً إلى صناديق موضوعة عنده، وقال: الرجال في الصناديق. فعزا أمير الجيوش ذلك الملك في مصر، فقتله، ولم تسلم الصناديق ولا الملك"¹.

وفي هذا المعنى ذكر ابن رضوان المالقي سبب هلاك بلاد الأندلس نقلا عن الطرطوشي، فقال - رحمه الله -: "... ومعظم ما أهلك بلاد الأندلس وسلط عليهم الروم أن الروم التي كانت تجاورها، لم يكن لهم بيوت أموال، فكانوا يأخذون الجزية من سلاطين الأندلس، ثم يدخلون الكنيسة فيقسمها سلطاتهم على رجالهم بالطاس، ويأخذ مثل ما يأخذون، وقد لا يأخذ منها شيئا، وإنما كانوا يصطنعون بها الرجال، وكانت سلاطين الأندلس من المسلمين تحتجن الأموال، وتضيق الرجال، فكانت للروم بيوت رجال، وللمسلمين بيوت أموال، فبهذه الحيلة قهروا وظهروا، فكان كل من يذهب هذا المذهب ولا يدخر المال يضرب فيه بالأمثال..."².

¹ - المصدر نفسه، ص204.

² - ابن رضوان: المصدر السابق، ص365-366. الطرطوشي: المصدر السابق، ج2، ص501-502.



قواعد الملك في فكر السلطان أبي حمو موسى الزياتي ----- د. رضا شعبان

القسم الثالث: أن يشتغل الملك بجمع الجيش ويفرط في المال: وهذا أيضا تصرف غير محمود؛ فلاشتغال بجمع الجيش والتفريط في المال، شأنه الإضرار بالدولة، وإرهاق كاهلها بنفقات لا تقدر على الوفاء بها، فيسهل على العدو شراء الدم، وتكون الخيانة وسيلة للغنم، والعمالة طريق الثراء، وفي ذلك كله ضياع الأمة والوطن .

قال - رحمه الله - : "اعلم يا بني: أنه لا يقبل لك عذر في قلة العطاء، ولا حجة لك في ذلك عند الأولياء؛ لأنك ربما دهمك عدو مواز لك، يكون في الجيش مثلك، وأقوى في المال، يريد أن يدخل عليك بعض إخلال، فيعطي المال لجيشه، ويتخذ جيشك بماله..."¹.

القسم الرابع: أن يفرط الملك في جمع المال والجيش: وهذا نقيض القسم الأول، وهو أسوأ الملوك؛ فلا يرجى منه صلاح، ولا فلاح.

قال - رحمه الله - : "هذا يا بني في الملوك مرفوض، معكوس الآراء منقوص، لأنه اشتغل بالأنهماء، واللذات، والمباني، والزخاريف، والترهات، واللهو، واللعب، والفتك، والطرب، والحنين للقينات، والآلات، والاستغراق في كل الحالات؛ فهذا يا بني: ملك أفسد ملكه بيده، وأعان عدوه على أخذه ونكده. يا بني: اعلم أنه من يكون على هذه الحال لا يرجى له عاقبة مثال، ولا يدوم له سلطان، ولا يعمر له أوطان، لسوء فعله وتفريطه في جيشه وماله، واستغراقه في لذاته واشتغاله، وهذا سبب هلاك بني أمية واستيلاء بني العباس عليهم بالكلية"².

الخاتمة

¹ - أبو حمو موسى: واسطة السلوك في سياسة الملوك، ت محمود بوترة، ص 205.

² - المصدر نفسه، ص 207.



قواعد الملك في فكر السلطان أبو حمو موسى الزياني ----- د. رضا شعبان

يمكن التأكيد في خاتمة هذا البحث على ما يلي:

- برع السلطان أبو حمو موسى في كتابه واسطة السلوك في سياسة الملوك؛ وذلك من خلال الآراء والأفكار القيمة التي أودعها فيه، حيث تنوعت وتعددت بين السياسة والتاريخ والاجتماع والأدب.

- لعل ما جعل الكتاب متميزاً عن كثير من المصنّفات، التي دوّنها المسلمون في علم السياسة، كون مؤلفه وصاحب أفكاره، أحد الذين تمكّنوا من السلطة وزمام القيادة في الدولة؛ فكان له حظ توظيف خبرته، بين طبّات هذا المصنّف، وتوجيهها لولده ووليّ عهده من بعده، وعادة الآباء الصّدق في النصيحة للأبناء.

- دقّق أبو حمو موسى في ضبط قواعد الملك، حفاظاً على استمرار ملك أجدده بني زيّان، وحرصاً على قوة سلطتهم؛ فجعلها أربعة قواعد: العقل، والسياسة، والعدل، وجمع المال والجيش.

- أجاد أبو حمو موسى في تقسيم كلّ قاعدة إلى أربعة أقسام، وجعل لكل قسم منها أثر في القسم الذي يوازيه ضمن القاعدة التي تليه.

- ربط أبو حمو موسى بين هذه القواعد ربطاً وثيقاً، ومدّ الجسور بين أقسامها مدّاً قوياً، لتتشكّل بمجموعها نمط نظام حكم، يقوى ويضعف بحسب درجة الاستناد عليها.

وإذا نظرنا إلى الكتاب من هذه الجوانب، حُقّق لنا - بلا ريب - اعتباره لبنة أساسية في صرح الفكر السياسي عند علماء الغرب الإسلامي.

ويجدر بنا - نحن المغاربة المحدثين - الباحثين في العلوم الإنسانية والاجتماعية، الاهتمام بتراث أعلامنا، لأنّ فيه الكثير من الأفكار والآراء التي يمكن أن تسهم في نهضة الأمة وازدهارها، وعودتها إلى رشدها من جديد؛ فلا فرع من دون أصل، ولا صلاح



قواعد الملك في فكر السلطان أبي هو موسى الزياتي ----- د. رضا شعبان

للاخرين إلا بما صلح به الأولون.

((... وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ))¹

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ .

المصادر والمراجع:

- البخاري: البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، ط 1، 2002م.
- البيهقي: السنن الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، 1414هـ.
- الترمذي: سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر و آخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، 1425هـ، 2004م.
- ابن خلدون: المقدمة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 1، 1423هـ، 2003م، ص 189.
- ابن رضوان المالقي: الشهب الالامعة في السياسة النافعة، تحقيق سامي النشار، الشركة الجديدة دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1404هـ، 1984م.
- ابن قيم الجوزية: الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية، تحقيق نايف بن أحمد الحمد، مطبعة المؤتمر الإسلامي، جدة، السعودية.

¹ - سورة هود: الآية 88.



قواعد الملك في فكر السلطان أبي حمو موسى الزياني ----- د. رضا شعبان

- أبو حمو موسى الزياني: واسطة السلوك في تدبير الملوك، المطبعة التونسية، تونس، 1279هـ.

- أبو حمو موسى الزياني: واسطة السلوك في سياسة الملوك، تحقيق محمود بوترعة، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، 2012.

- ابن حنبل: مسند الإمام أحمد ابن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ، 1997م.

- الحافظ التنسي: تاريخ ملوك بني زيان، ص179-180.

- الطرطوشي، أبو بكر محمد بن الوليد: سراج الملوك، تحقيق محمد فتحي أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ط1، 1414هـ، 1994م.

- الغزالي، أبو حامد: فاتحة العلوم، المطبعة الحسينية، مصر، ط1، 1322هـ.

- الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ت عصام فارس الحرساني ومحمد إبراهيم الزغلي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1461هـ، 1996م.

- الهيثمي: مجمع الزوائد، دار الريان للتراث، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407هـ.

- عبد الحميد حاجيات: أبو حمو موسى الزياني (حياته وآثاره)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1982.

- محمد الأمين بلغيث: النظرية السياسية عند المرادي وأثرها في المغرب والأندلس، ص65.

- مسلم: صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1991م.